

دور التحصين العقدي في القضاء على الفساد الإداري

د. طيبات لمير

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

تمهيد:

إن الفساد الإداري المتفشى في كثير من القطاعات والمؤسسات في بلادنا ،
تكمّن وراءه أسباب ذاتية وموضوعية متداخلة، لكن كلها ترتد في الأخير – في اعتقادي – إلى
سبب رئيس هو ضعف أو انعدام الضمير الأخلاقي المهني ، الأمر، الناهي ، المؤنب ، المراقب
لصاحبه، الناتج بدوره عن وهن الاعتقاد بالله ومراقبته وخشيته عند صاحبه . إذ:
{ من لا يخشى الله لا يخشى الناس وهم في غفلة عنه } .
فلا يتورع حينئذ أن يوظف ذكاهه وصلاحيته في الاحتيال على قانون الإنسان ما
دام لا يعير اهتماما لقانون الله وشرعه.

والهدف الرئيس المتوخى من هذه المداخلة هو تقديم علاج ناجع مسهم في معالجة ظاهرة الفساد الإداري،
انطلاقا من كونها تعالج المرض في جذره ولا تعالج العرض في سطحه .

المقدمة :

غرائز واستعدادات الإنسان متعدّدة متنوعة، معقدة غير سهلة، مركبة غير بسيطة، فمنها
الفردية الذي يدفع إلى الأنانية والأثرة، ومنها الاجتماعية الذي يغري بالتعاون والإيثارة، ومنها ما
يهبط به إلى حضيض المادة، ومنها ما يسمو به إلى أفق الروح، ذلك أن الإنسان نفسه مخلوق مركب،
في كيانه جزء أرضي وجزء سماوي، هو جسد وروح، شهوة وعقل، وإنسان وحيوان، وملاك وشيطان.

ترى ما الذي يحدّد للإنسان سلوكه المستقيم ويجعله مصلحا لا مفسدا ؟

هل هو القانون ؟

أم هي الفلسفة الأخلاقية ؟

أم الإيمان بالله ومراقبته والتدين بدينه ؟

1. القانون وحده لا يكفي لضبط السلوك الإنساني :

أما القانون فهو أمر لا بدّ منه لتنظيم شؤون الجماعة وتحديد علاقاتها، ولكنه لا يصلح وحده ضابطاً لسلوك البشر ؛ لأن سلطانه على الظاهر لا على الباطن، ودائرته في العلاقات العامة لا في الشؤون الخاصة. ومهمته أن يعاقب المسيء دون أن يستطيع مكافأة المحسن، على أن التحايل على القوانين ميسور. وتطويع نصوصها للأهواء مستطاع، والهرب من عقوباتها ليس بالشيء العسير، وإذا كان القانون عاجزاً عن أن يكون زاجراً عن الشر ورادعاً عن الجريمة والفساد، فإنه لأعجز عن أن يكون دافعاً إلى خير أو باعثاً على حق أو حافزاً على عمل صالح.

ومهما افترضنا في القانون الإنساني من مطابقة العدل والحق، فإنه على كلّ حال ليس له قوة ذاتية وإنما قوته في «السلطة» القائمة على رعايته وتنفيذه.

يقول جمال الدين الأفغاني : ليس بخاف أن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر، ورفع الظلم البين، أمّا الاختلاس والنزور المموه والباطل المزين والفساد الملون بصبغ من الصلاح، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه ؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل، وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره ؟

على أن الحاكم وأعوانه قد يكونون، بل كثيراً ما كانوا ويكونون ممن تملكهم الشهوات، فأى وازع يأخذ على أيدي أصحاب السلطة، ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم ؟ وأي غوث ينقذ ضعفاء الرعايا وذوي المسكنة منهم من شره أولئك المتسلطين وحرصهم ؟

ويقول محمد عبد الله دراز في كتابه «الدين» : لا قيام للحياة في الجماعة إلاّ بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته. وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع وازع، يكفل مهابته في النفوس، ويمنع انتهاك حرماته.

ونقرر أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين، أو تدانيها في كفالة احترام القانون وضمنان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والثمام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.

«والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا في عنقه، ولا يجري في دمه ولا في عضلاته ولا في أعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكرة والعقيدة، ولقد ضل قوم قلوبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها». فقالوا : ان المادة تسبق من الوعي⁽¹⁾.

«أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدها لإقامة مدنية فاضلة تحترم فيها الحقوق، وتؤدي الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية. لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون».

«ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء وعوضاً عن التربية والتهديب الديني والخلقي، ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بدّ في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى الشر والفساد ذلكم الرقيب هو (العقيدة والإيمان)»⁽²⁾.

فشل القوة والقانون ونجاح الإيمان في تقويم سلوك الإنسان ودرء الفساد.

تحريم الخمر بين الولايات المتحدة وأمة الاسلام:

لكي يتضح لنا أثر الإيمان في تغيير العادات المستمكنة، وتربية النفوس على عمل الخير وإن كان شاقاً، وترك الشر وإن كان مألوفاً ومعتاداً - نقيم موازنة بين موقفين في مشكلة واحدة : موقف

(1) : أفانا سيف، المادية الجدلية والمادية التاريخية، دار التقدم، موسكو 1981، ص 20.

(2) : من كتاب «الدين» للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز.

من التاريخ الحديث، وموقف من التاريخ القديم، يصوّران لنا كيف يصنع وازع الإيمان ما يعجز عنه وازع السلطان والقانون.

الموقف الأوّل في الولايات المتحدة الأمريكية... وقد انتشرت فيها عادة السكر وشرب الخمر انتشاراً أفع الحكومة بضرر ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع، فأصدرت الحكومة قانوناً يمنع الخمر، ثمّ تبين لها بعد مدة سيرة أنها عاجزة تمام العجز عن تنفيذ قانونها، وأن أفراداً وجماعات أخذوا يعيشون في الأرض فساداً بتعاطي الخمر وتهريبها والاتجار بها، والتفنن في صناعتها على استخفاء، واستحضار أخطر أنواعها أكثر من ذي قبل.

ومما ينبغي أن نلتفت إليه أن هذا الحظر لم يكن (أمرًا ملكيًا) أو منشورًا من أمبراطور مستبد أراد أن يرغم شعبه بسلطان القوة، وقوة السلطان.

كلا... إنه تشريع جاء عن طريق برلمان في بلد ديمقراطي دستوري حر، من شأنه أن يشرع لنفسه ما يجلب له النفع، ويدركه عنه الفساد والضرر، وقد شرع هذا القانون بعد أن اقتنع به الرأي العام، وتحقق له من الوجهة العلمية والعملية أن الخمر ضارة بالصحة، مفسدة للعقل، محطمة للحضارة.

وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة :

1. جنّد الأسطول كلّه لمراقبة الشواطئ، منعًا للتهريب.
2. جنّد الطيران لمراقبة الجو.
3. شغلت أجهزة الحكومة واستخدمت كلّ وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر، وبيان مضارها وجنّدت كذلك المجلات والصحف والكتب والنشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها. وأنفقت ملايين الدولارات، وأعدم مئات الأشخاص وسجن الآلاف وغرم الملايين منهم من أجل إنجاح هذا التحريم وإباحة الخمر إباحة مطلقة.

فشل كامل لأمر الحظر... وسقوط قرره التعديل الدستوري الحادي والعشرون. الذي صدّق عليه الكونغرس عام 1933.

وذلك هو الموجز التاريخي للمأساة التشريعية بأكملها... تلك التي سميت في تاريخ الأمة الأمريكية (عهد التحريم)⁽¹⁾.

لقد فشل القانون، وعجز السلطان، وأفلس أجهزة الدلة، في منع الخمر ومحاربة السكيرين، برغم الاقتناع العقلي الذي كان سائداً في الأمة بضرر الخمر، ولكن الاقتناع العقلي شيء وعمل الإرادة شيء آخر...

ولقد قال أحد الكتّاب الغربيين بحق : «إن طلب شيء في تصميم وقوة يتطلب روحاً من التعبّد والتقشف، أي تكريس الحياة لبلوغ مثل أعلى واحد، اختاره الإنسان بعناية وتفتن... إن الإرادة تغلب دائماً الثقافة، حينما تكون الثقافة لا المبادئ الدينية هي التي يركز عليها تصميم المرء ونشاطه ومدده الروحاني».

هذا موقف، والموقف الآخر من تاريخنا العربي الإسلامي القديم : هو تحريم الخمر في أمة العرب العاشقة للخمر.

فقد بعث محمد رسول الله وللخمر في المجتمع العربي سريان وانتشار، تجرى من نفوس أبنائه مجرى الدم، يتمدّحون بشرها، ويفتنون في وصفها ووصف مجالسها وندمائها وأقداحها، ويصوّر شاعرهم مدى تعلّقه بها فيقول :

إِذَا مَتَّ فَادْفَنِي إِلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ *** تَرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقَهَا

ولم يستطع امرؤ القيس الشاعر المعروف -وقد بلغه مقتل أبيه- أن يدع الكأس من يده، ويفارق مجلس ندمائه بل قال كلمته المشهورة : «اليوم خمر وغداً أمر».

ولما نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽⁹⁰⁾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ

(1) : أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين، دار ابن حزم، دمشق 1986، ص 77.

أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾^(١). ترى الرجل يحطم كأسه، ويسفك ما عنده من خمر في الطريق حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها.

إن السر في النجاح هنا والفشل هناك هو الإيمان بالله ومعرفته وخشيته الذي تحياه بعض النفوس وتفتقده أخرى. إنه قوة العقيدة هنا ووهنها هناك.

2. الفلسفة الأخلاقية لا تغني :

وأما الفلسفة الأخلاقية فلا يمكنها توجيه الجماهير الغفيرة من الناس، إنها لا تستطيع إلا توجيه أفراد معدودين، وتأثير محدود لا ينفذ إلى الأعماق كما ينفذ الدين.

ثم أية فلسفة أخلاقية تلك التي يتبعها الناس، وكلّ فيلسوف له مذهب، وكلّ مذهب له مقياس ؟ أهى فلسفة المنفعة التي نادى بها وليم جيمس وغيره ؟ أم فلسفة اللذة التي نادى بها «أريستيب» و«أبيقور» ؟ أم فلسفة القوة التي نادى بها «نيتشة» أم فلسفة الواجب التي دعا إليها «كانت» ؟

وما الجزاء الذي يناله المرء على استمساكه بفضائل أخلاقية معينة ؟ أهو جزاء يقنع العقل ويرضي النفس ؟ أم هو سراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ؟

ما جزاء الجندي المجهول الذي يعمل لخدمة المجموع دون أن يراه أحد أو يشعر به أو يكافئه ؟

ما هو جزاء المضحي في سبيل أمته وأسرته، يقاتل دفاعاً فيقتل ظلماً فيموت ؟ إن راحة الضمير هنا - التي يتغنى بها الأخلاقيون - ليس لها وجود ؛

ومن جانب آخر، ما جزاء من عاش طول عمره يظلم ويطغى، ويعب من الشهوات الحرام دون أن يشعر بتأنيب الضمير ؛ لأن ضميره قد مات ؟ إنه لا يحل هذه العقدة إلا الإيمان بالله، إلا

(١) : المائدة، آية ٩٠، ٩١.

الدين... الذي يقول : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (7) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (8)⁽¹⁾ ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (4) ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (5) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ (6)⁽²⁾ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (35) ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ (36) ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (37) ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (38) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (39) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (40) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (41)⁽³⁾.

الأخلاق لا الفلسفة الأخلاقية :

وللأخلاق في نظر الدين عامة، والإسلام خاصة محل رفيع، ومكان فسيح، والقرآن لم يثن على خير الرسل محمد صلى الله عليه وسلم بأكثر من أن قال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (4). والنبي يلخص رسالته فلا يزيد أن يقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (5).

ولا عجب ان رأينا من محققي علماء الإسلام رجلاً مثل ابن القيم يقول : « الدين هو الخُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين » (6).

وهذا مصداق ما جاء في الحديث النبوي «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» (7)، وقال صلى الله عليه وسلم : «البر حسن الخلق» (8) «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن» (9).

(1) : الزلزلة، آية 7، 8.

(2) : محمد، آية 4-6.

(3) : النازعات، آية 35-41.

(4) : القلم، آية 4.

(5) : رواه البخاري في الأدب المفرد، دار القلم، بيروت، د. ت، ص 34.

(6) : مدارج السالكين، ج2، ط السنة المحمدية، د. ت، ص 307.

(7) : رواه مسلم ، من حديث أبي هريرة.م. صحيح.م. باب حسن الخلق، ص335، مكتبة سلسيل ، القاهرة، 2002.

(8) : رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان.المصدر نفسه.

(9) : رواه الترمذي وقال : حسن صحيح – من حديث أبي الدرداء.سنن الترمذي .نسخة واحدة ، ص 259 مكتبة المعرفة، القاهرة، 2009.

المعرفة، القاهرة، 2009.

ذلك هو شأن الأخلاق في الدين وفي المجتمع... هي في الدين ركن ركين، وهي في المجتمع أساس مكين.

3. علاقة الإيمان بالسلوك الأخلاقي :

غير أن الإيمان لا يقف عند حد الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتمجيدها، إنه هو الذي يرسى قواعدها، ويحدّد معالمها، ويضبط مقاييسها الكلية، ويضع الأمثلة للكثير من جزئيات السلوك، ثم يغري بالاستقامة، ويحذر من الانحراف، ويضع الأجزاء المثوبة وعقوبة على كلا السلوكين نصب العين.

الإيمان هو المصدر الفذ المعصوم الذي يعرف منه حسن الأخلاق من قبيحها، وهو الذي يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه، ويعمل له، وهو الذي يحد من أنانية الفرد، ويحد من طغيان غرائزه، وسيطرة عاداته، ويخضعها لأهدافه ومثله، ويربي فيه الضمير الحي الذي على أساسه يرتفع صرح الخلاق⁽¹⁾. إن الإيمان قوة قاهرة لسلطان الشهوات المنحرفة وللنفس الأمارة بالسوء.

الخاتمة :

فالإيمان الصحيح بالله إذا سكن في قلب، وتغلغل في أعماقه، حول اتجاهه، وغير نظرتة للكون والحياة، وأحكامه على الأشياء والأعمال، وعدل سلوكه مع الله والناس، ولم يقف في سبيل ذلك فتوة الشباب، ولا كهولة الكهول، ولا هرم الشيوخ. ولاعتقاده الجازم أن الله يرقبه في عمله، ويراه في مصنعه أو في إدارته أو في أي حال من أحواله، وأنه تعالى «كتب الاحسان على كل شيء»⁽²⁾

(1) : القرضاوي، الإيمان والحياة، مؤسسة الرسالة، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت.

(2) : حديث صحيح رواه مسلم. مصدر سابق، كتاب الإيمان، باب الإيمان والاسلام والاحسان، ص20.

وقد فسر نبي الإسلام هذا الاحسان في جانب العبادة، فقال : «الاحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»⁽¹⁾.

وهذا هو شعور المؤمن في كل عمل من الأعمال ، لا في العبادة وحدها وإنما في كل شيء ، فهو يؤدي عمله كأنه يرى الله، فإن لم يبلغ هذه المرتبة فأقل ما عليه أن يشعر أن الله يراه، وشعار المؤمن دائماً في أدائه لعمله : إني أرضي ربي.

وهناك أخلاق أصيلة يتوقف عليها عمل المؤمن. وهي الإصلاح لا الإفساد، الأمانة، والاخلاص، وهي في المؤمن على أكمل صورة وأروع مثال.

(1) : جزء من حديث جبريل المشهور. صحيح البخاري، مجلد واحد، باب الإيمان، رقم 445، دار ابن حزم 2007، ص 1115.